سيف صادق

«أصعب شيء وأجمل شيء أن تعمل وتناضل وسط الفلاحين، يبدون في ظاهرهم غير مبالين أو حتى خائفين لكنهم في الواقع يلتهبون ثورية».
سيف صادق
(في حواره معي)

هناك بعيدا جدا، تماما على خط الحدود مع السودان كان بيت سيف صادق في قرية أدندان باب البيت في مصر، وشباكه يطل على السودان.

القرية فقيرة ليس ككل القرى النوبية، لكنها الأفقر، ولد ليلة رأس السنة في ١٩٣١/١٢/٣١ ولكن لا أحد هناك يعرف ذلك الشيء المسمى رأس السنة. فقط طفل جديد يأتي، ليكبر ويعمل في القاهرة خادما ويرسل مالا تعيش به الأسرة، ويكبر الطفل فينفتح أمامه طريقان تقليديان؛ أن يعمل خادما أو أن يجاور في الأزهر، هو كسر القاعدة، فالأسرة لا تمتلك ترف أن يجاور ابنها في الأزهر، ولم تكن المنحة الشهرية قد تقررت بعد، فقط الجراية وهي عدة أرغفة، وهو لا يقبل أن يكون خادما أو بوابا، واختار أن يكون عاملا. الفتى النحيل المبروم كنواة ثمرة بلح نوبية خلع الجلباب وارتدى بنطلونا أزرق ليعمل ميكانيكي سيارات، وسكن كالعادة في الفوالة، لكنه يعود ليكسر القاعدة فيصبح وفديا متحمسا ويصبح سكرتيرا للشباب الوفدي في الفوالة.

الفتى هادئ، نادر النطق، لا يبدي وجهه أي انفعال، ينساب دون أن يلحظه أحد إلى الورشة ليقضي نهاره ممددا تحت سيارات الأغنياء أو منحنيا برأسه حيث الموتور.. ويصبح أسطى يعرف كيف يكسب تقدير الجميع، وفي ١٩٤٧ تلتقطه عين عبده دهب ويضمه إلى خلية كلها طلاب وكلها نوبيون «زكي مراد، مبارك عبده فضل، محمد خليل قاسم» كانت هناك حوارات لا تنتهي هو لا ينطق، فقط يستمع، يتعلم، يقرأ ويجند عمالا

وشبانا وفديين، ويمتلئ حى عابدين بحصاد نضاله، يقول زكى مراد: «ذات يوم نطق سيف (الرفيق عز) مقدما قائمة طويلة من أشخاص جندهم، لم نهتم بهذه الثروة النضالية، فقط صحنا جميعا أخيرا نطقت وسمعنا صوتك».

وفى عام ١٩٤٨ يقبض عليه ليمضى فى السجن عامين ويفرج عنه ليقرر التوقف عن إصلاح سيارات الأغنياء ويحترف، يترك كل شىء ويذهب إلى منطقة بحرى، وهذك التقينا. كان ينساب من طنطا إلى المنصورة دون أن يشعر به أحد، وإذ نجتمع كان لا ينطق إلا نادرا، هادئا هو لكنه فى كل اجتماع كان يخجلنا، يأتى ومعه ثروة من رفاق جدد.. وقرى جديدة فتحها وأقام فيها نقطة ارتكاز، وما إن يأتى عام ١٩٥١ حتى كانت منطقة بحرى تموج بفعل ثورى صاخب وانتفاضات فلاحية ضد الإقطاع، وكوادر فلاحية ونشرة دورية سرية واسعة الانتشار «صوت الفلاحين»، وفيما نحن نزهو بمظاهراتنا فى شوارع المنصورة وغيرها من المدن تأييدا لإلغاء معاهدة ١٩٣٦، كان هو يبنى ركائز فى عشرات القرى، وأخيرا نطق وبهدوء قال إنه يودعنا فقد شكل كتيبة من الفلاحين والطلاب، ووافقت اللجنة المركزية على ضمهم إلى كتائب الأنصار التى شكلتها «حدتو» لتحارب الاستعمار فى منطقة القنال، وكلفته السفر مسئولا عن هذه الكتائب.

وتحترق القاهرة وينساب هاربا إلى قرى لا تخطر على بال أحد، ويعتقل عام ١٩٥٣ ليبقى حتى ١٩٥٦، فينساب مرة أخرى إلى عشقه الريفى المذاق، وكعادته يكمن هادئاً، ثم يفاجئ الجميع بمشروع لم يتجاسر عليه أحد، فقد أسس مشروعا للنشر فى صنطا «دار الفجر» وأصدر أول مجلة يسارية فلاحية، وكانت «الفجر» بداية لنشاط فلاحى واسع بحيث أصبحت منطقة بحرى أهم نقطة ارتكاز ثورية للحزب، وفيما ينعم الجميع فى غفلة التعاون مع النظام الناصرى تأتى حملة أول يناير ١٩٥٩ ويعتقل هو ومجموعة من رفاقه فى طنطا، وفى المعتقل كان التعذيب الوحشى، لكن قطعة الجرانيت الآتية من الجنوب تظل مستعصية على إبداء أى انفعال أو توتر، كان صمته وهدوؤه يغيظ الجلادين ويزعجهم فيمنحونه مزيدا من التعذيب لعله ينطق أو يتأثر، لكن وجهه الهادئ يظل بلا انفعال، وحتى عندما تغلق الزنازين وتنهمر الانفعالات ألما وغيظا كان هو هادئا بلا توتر وبلا انفعال وكأنه قضى طوال اليوم جالسا فى مقهى يشرب الشاى، وكان هدوؤه يخجلنا فنحاول أن نقلده دون جدوى.

ويفرج عنه مع الجميع فى ١٩٦٤، ويمنح وظيفة بسيطة فى الشركة العامة لاستصلاح الأراضى، لكن الحنين الغامر للنضال يدفعه إلى أن يكون واحدا من خمسة أعادوا تأسيس الحزب، وبهدوء وكأنه يتخذ قرارا بإعداد كوب شاى أبلغ رفاقه الأربعة أنه خلع ثياب الأسطى سيف الذى يشرف على إصلاح جرارات الشركة وارتدى ثياب الرفيق «عز» لم ينتظر قرارا من أحد ولا موافقة من أحد وأصبح من جديد محترفا.

ومن جديد أيضا إلى طنطا حيث يعيد المجد الفلاحى مرة أخرى وتتسع رقعة نشاطه فيقبض عليه عقب إضرابات عمال حلوان فى يناير ١٩٧٥، فقد كانت أصابعه هناك أيضا، وبعد الإفراج عنه يختفى نهائيا. هم يشعرون بأصابعه ويرون آثار أقدامه فى عشرات القرى ولكن لا يعرفون أين هو. وعقب أحداث يناير (١٨ - ١٩ يناير ١٩٧٧) يطلبونه هو بالذات ولا يجدونه ويظل هاربا ومطلوبا ومناضلا لمدة عامين ونصف العام.. وإذ تنتهى القضية يعود للظهور، وبعد فترة يأتيه النبأ الصاعق وفاة زميل عمره زكى مراد، وقبلها كان محمد خليل قاسم قد رحل، هنا فقط بدأ يتململ، تبدو على وجهه مشاعر ليست حزينة لكنها توحى بأنه قرر الرحيل، ويتحول الحزن إلى مرض غريب لا يملك الأطباء تفسيرا له، إلا أنه قرار بالرحيل.

وعندما حان وقت القرار النهائى استدعى على عجل صابر بسيونى الذى أتاه بسيارة وتجول معه فى حى عابدين وحوارى الفوالة يستوقفه لحظة ليقول له هنا كنت هاربا، ثم هنا جندت فلانا، هنا أخفيت المطبعة الحزبية، ويتجول.. يتجول يرى كل مكان أحبه وكل موقع شهد نضالا له، وكانت البسمة الراضية ترتسم على وجهه فقد فعل ما يجب، وربما أكثر مما يجب، وفيما كان يستنشق عبير النضال القديم كان يلفظ آخر أنفاسه.. كسر القاعدة أيضا، لم يمت فى المستشفى ولا فى بيته مع زوجته وأولاده وإنما فى السيارة وهو يقبل عتبات النضال القديم، فمات بين أنفاس أحب أصحابها ومنحهم ضوء الفكر التقدمى وأحبوه هم وظلوا يذكرونه دوما.. ورحل.